

ضيعة دار تينجتون ومدرسة التربية التجريبية بها^(١)

بقلم عبد العزيز أمين

عضو هيئة دار العلوم بالمجاردة

٢

وربما كان أهم ما استدعى عجبى خلال الأسبوع الأول فى هذه المدرسة ما يسمونه « الحرية المطلقة » ، فلقد زرت فصلا به اثنا عشر تلميذا (بنين وبنات) ولا حظت أن بعضهم كان مكبا على إتمام صورة ملونة لمنظر طبيعى ، وآخرين ينسجون على النول ، والمدرسة تقرأ قصة تاريخية للبقية التى التفت حولها النفاق الأطفال حول أهمهم . وقد يكون من المناسب هنا أن أشير إلى أننى كنت ألاحظ بعض التلاميذ يتسللون إلى حجراتهم (حجرات نومهم) من حين لآخر لاستعمال الفونوغراف ، وإدارة المدرسة تعلم هذا ولا تراه خروجاً على النظام .

(٥) قد يكون من السهل إدراك تلك الحقيقة وهى أن المدرس مكلف بترك الموضوع الذى يتناول شرحه إلى موضوع آخر يقترحه التلاميذ إذا علمنا أن بالمدرسة مدرسا لكل خمسة تلاميذ ، وأنه من الممكن تطبيق هذه القاعدة بسهولة . وقد سألت أحد المدرسين عن موقفه إذا طلب بعض التلاميذ تغيير موضوع المناقشة إلى موضوع آخر ورفضه الباقيون ، فذكر لى أنه فى مثل تلك الحال يتبع رأى الأغلبية ويترك للأقلية الخيار فى عمل ما يشاءون أو ترك مكان الدراسة نهائيا إلى أى عمل آخر يريدون . وما لاحظته على العموم هو أن التلاميذ يملون بسرعة كل ما كان خاليا من التشويق والنشاط الجسمى ، فقد حدث أن اقترحت إحدى المدرسات ذات مرة إعطاء قطعة إملاء وابتدأت تملى القطعة على عشرة

(١) راجع المقال الأول فى العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم

تلاميذ ، ولكن ما مضت بضع دقائق حتى قال أحد التلاميذ : هذا يكفي . لم تشأ المدرسة أن تقبل هذا الاقتراح واستمرت في إملاء القطعة ولكنها طلبت من ذلك التلميذ أن يعمل أى شيء آخر إذا لم يرد كتابة القطعة . وقد لاحظت هذه الروح تسرى من تلميذ لآخر حتى انتهت المدرسة باملاء القطعة على ثلاثة تلاميذ فقط .

وبالرغم من بعض المزايا التي تنتجها حرية اختيار التلاميذ لموضوع الدرس فإني لا أعاضد أنصار هذه الفكرة ، وأرى أنها قد تستغل - وهو الغالب - في إضاعة الوقت والعبث ، وقد لا يمكن اتباعها في الفصول كبيرة العدد . على أنه من المستحيل أن تترك للتلميذ حرية اختيار موضوع الدرس ما دام هناك منهج دراسي معين يجب إكماله .

(٦) قادتنى الضابطة إلى بعض حجرات نوم التلاميذ ، ثم أخذت تشرح لى أهمية الاعتماد على النفس منذ الصغر ، وضربت لى مثلا بتلامذة المدرسة حيث ينظفون حجراتهم وفراشهم بأنفسهم ، وبينما هى كذلك فى حديثها إذ أبصرت بعض أعقاب السجائر على مكتب إحدى التليذات ، فقلت : وما هذا ؟ أهو اعتماد على النفس أيضا ؟ فابتسمت ثم قالت : هذا أثر من آثار الحرية التي تمنحها تلاميذنا ، ولا نرى ضيراً فى هذا إذ أن التدخين شيء ثانوى ككثير من الأشياء الثانوية المباحة ، وما دام التليذ يميل إلى التدخين - كما يميل إلى الأكل أو الشرب أو الذهاب إلى السينما - فلندعه وخير لنا وللتليذ أن يشرب الدخان علنا من أن يعمل ذلك خفية . ولا أريد أن أقول : إن كل التلاميذ يشربون الدخان وإنما ليس هناك ما يحول بينهم وبين ذلك إن أرادوا . ولو بحثنا لوجدنا أن أغلب أولئك الذين يشربون الدخان إنما بدءوه خفية ورغم إرادة والديهم أو أولياء أمورهم ، ولم تفلح صرامة آبائهم وشدتهم فى أن تحول بينهم وبين شربه . وفى ذلك من الجبن الخلقى ما يجد المرء مندوحة عنه .

(٧) إن تكوين العادة الطيبة منذ الصغر أمر ضرورى قرره علماء النفس والمربون ، وشعور الطفل بضرورة اعتماده على نفسه منذ صغره ، وتحمله مسئولة

القيام بما يحتاج إليه متى استطاع لها أثرهما الصالح حين تصبح الحياة جهاداً ومغالبة .
ولهذا أعجبنى النظام الذى تتبعه مدرسة دارتينجتون مع تلامذتها من تكوين
عادة الاعتماد على النفس ، وتحمل المسئولية منذ الصغر . يتضح هذا فى تكليف
التلاميذ بتنظيف حجرات نومهم ، ومسح أحذيتهم ، واعداد مائدة الغذاء ، وحل
الأخشاب من الغابة إلى حجرة الأعمال اليدوية .

وليس غريباً أن يعلم القارئ أن تلامذة هذه المدرسة قد حفروا بأنفسهم
بحيرة كبيرة للسباحة داخل بنيان المدرسة ، واشتركوا فى بنائها . والكبار منهم
يشتغلون كالعامل فى قطع الأخشاب ، وفلاحة الأرض برغبة ونشاط عظيمين .
ولا يخفى أثر تلك الخبرة الشخصية والممارسة العملية فى تكوين المعارف العامة ،
والوقوف على كثير من الحقائق والمعلومات التى لا يكتفى فى الحصول عليها قراءة
كتاب أو سماع محاضرة .

والمدرس الخبير يعلم مقدار رغبة الطفل فى مباشرة الأعمال اليدوية . وفى
استغلال نشاطه الجسمانى فى أى عمل يستدعى الحركة . فإذا لم يستغل ذلك النشاط
فيما هو مفيد ، ونحت اشراف المدرس كان لابد ان يجد منفذاً لاستنفاده فى
ناحية أخرى محوطة بالضرر . ومعرضة للأخطاء .

- ويحسب أن أشير هنا إلى عدم إشراف التلاميذ فى الألعاب الرياضية ككرة
القدم ، والهوكى ، أو الكركت ، كما هى العادة فى المدارس الانجليزية ، إذ أن
إدارة المدرسة ترى أن نشاط التلاميذ الجسمانى مستغل إلى أقصى ما يمكن فى الأعمال
اليدوية ، والفلاحة وغيرهما . ولهذا لا ترى داعياً لمجاراة المدارس الأخرى فى
الإغرام بالألعاب الرياضية (Athletics) إلى حد العبادة ، وإنما نعتقد فى الألعاب
الرياضية كوسيلة لجلب السرور ، وحفظ توازن الجسم . هذا هو رأى مديرى
المدرسة فى تقريرهم الأخير .

(٨) - إن فكرة تنشئة الطفل فى بيئة ديمقراطية ، خالية من مظاهر الحياة
الكاذبة ، والتصنع الذى لاحاجة إليه قد حدث بمديرى مدرسة دارتينجتون إلى
(٩ - صحيفة دار العلوم)

إلغاء كل ما يسمى ، لقباً ، فهم ينادون بعضهم بعضاً بأسمائهم العادية فقط . ولا يحسب القارىء أن معنى هذا أو نتيجته هو عدم الاحترام ، فإشاهدته من عطف الكبير على الصغير ، واحترام الصغير للكبير اقنعني بصلاحيه تلك النظرية . كنت جالساً مع أحد المدرسين أثناء بعض الفسح (الواقع أنها لم تكن فسحة وإنما هي فترة راحة بسيطة) وإذا بتلميذ يحمل زورقاً خشبياً صغيراً في إحدى يديه ، وكتاباً في اليد الأخرى قد دخل علينا منادياً : كلارك (اسم المدرس) أسمح بإرشادى إلى كيفية إتمام ذلك الزورق ؟ أخذ المدرس الكتاب من يد الطفل ثم شرح له ما يجب عمله ، وحينئذ التفت إليه التلميذ قائلاً : أشكرك ، وانصرف . ذلك مثل من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن شرحها هنا .

إن المدرسة تتحاشى جهد الطاقة أن تشعر اليلبد بأى سلطة صادرة من المدرس ، اللهم إلا ذلك الإشراف الطبيعى : إشراف الكبير القوى على الصغير الضعيف ، ذلك الإشراف المصحوب بالعطف والحلم والحب . ولما كان نظام المدرسة مؤسساً على نظام الأسرة - والمربون يعتبرون إخوة كباراً للتلاميذ - لم تكن هناك حاجة لاستعمال الألقاب بين أفراد الأسرة الواحدة .

(٩) يشير تقرير المدرسة إلى « أنها تهمل نهائياً العادة المتبعة فى المدارس وهى إعطاء التلاميذ درجات على أعمالهم المدرسية ، وإيجاد روح المنافسة بين التلاميذ بحجة أنهما ضروريان لاستبقاء النظام ورفع المستوى العلمى بالمدرسة ، فالمنافسة فى المدرسة (دارتينجتون) لا يلجأ إليها مطلقاً . والسبب فى هذا :

أولاً - أن التجربة لم تثبت قطعياً ، أن المنافسة ذات أثر صالح ، فبينما تستحث بعض التلاميذ على العمل إذ تثبط همة الباقين الذين يحتاجون فى الحقيقة إلى تشجيع .

وثانياً - أن فى اعتماد المدرس على عامل خارجى لاصلة بينه وبين المادة التى تدرس دليل على فشله فى جعل المادة مشوقة بطبيعتها ، وانها لم تعد بعد موضع رغبة التلميذ ، ومبعث نشاطه .

وثالثاً - أن في اهتمام المدرس بإيجاد روح المنافسة بين التلاميذ في موضوع من الموضوعات قد يؤدي إلى الاسراف في تلك الناحية وإهمال ناحية أخرى أهم وأنفع . ومع أننا نعتقد بصدق النظرية القائلة : إن حب المنافسة طبيعي في التلاميذ ، لانرى ضرورة لجعل المنافسة أداة في يد المدرسين يستغلونها دائماً في غير موضعها الطبيعي ، ويعبرونها أهمية أكثر مما يجب . وقد يتسأل القارىء : وما هي إذن طريقتهم في الامتحانات ؟ والجواب على هذا من التقرير هو أن المدرسة لاتعد لأى امتحان . ورائدها في الدراسة هو تزويد الطفل بكل ما يرغب في معرفته ، وتمهيد كل الوسائل الممكنة لتثقيفه وإرشاده ، وإتمام غريزة حب الاستطلاع ، وتشجيع نشاطه الذاتي ، وإعطاؤه الفرصة الكافية لتنمية مواهبه واستعداده في أى ناحية من نواحي الحياة . وعلى ذلك لا داعى لتعقيده بأى منهج دراسى معين . ومع ذلك فبعض التلامذة الكبار الذين يرغبون في الالتحاق باحدى الجامعات يجدون الفرصة الصالحة للدراسة المنظمة على أيدي مدرسين قادرين . وفى اعتقادنا أن بعض التلاميذ عندهم الاستعداد للدراسة الأكاديمية ، وآخرين لم يوهبوا ذلك الاستعداد ، ولهذا نجد من العبث محاولة إعدادهم لأى امتحان عام ، ونرى من الأوفق إعدادهم لما خلقوا له ، والتعاون في المدرسة غاية ووسيلة في آن واحد ، فهو ضرورى في المدرسة - كفاية - لأن المدرسة صورة مصغرة من الحياة العامة ، والتعاون في الحياة العامة ضرورة لامندوحة عنها . وهو أيضاً وسيلة لتنمية روح المسؤولية في الطفل ، والشعور بوجوده كمكائن منتج مفيد يعتمد عليه في ترقية مجتمعة ، والقيام بالواجب المشترك نحو الجماعة . وعادة التعاون تتضح وتنمو في كل ما يقوم به الأطفال من قطع الأخشاب ، أو إعداد مائدة الطعام ، أو مساعدة كبيرهم لصغيرهم ، وقويهم لضعيفهم .

(١٠) لما كانت الفكرة في تأسيس تلك المدرسة هي اجراء تجارب مختلفة في التربية كان من الضروري إذاً أن تترك للتلاميذ الحرية الكافية لعمل ما يشاءون ولإدارة أنفسهم بأنفسهم Self - government . ولهذا تركت المدرسة للتلاميذ حق اختيار النظام الملائم لرغباتهم وميولهم من غير تكلف أو تصنع . فهم

يشتركون في تعيين أيام الإجازات السنوية ، وتحديد وقت افتتاح المدرسة في الصباح ووقت الغذاء أو الذهاب إلى النوم إلى غير ذلك من النظم المدرسية .
وترى المدرسة أيضاً أن هذه الحرية في وضع أو إلغاء أى قانون مدرسى وفقاً لرأى الأغلبية تكون في الطفل روح الديمقراطية ، وتحمله على احترام رأى الأغلبية ، وعلى الاعتداد برأيه كعضو في الأغلبية أو ضدها ، وتستحدث فيه الشعور بقوة الرأى ، وبضرورة التفكير المقرون بالتعقل قبل اصدار أى فكرة تتبعها نتائج تؤثر في تكوين مجتمعه .

وأثر تلك الحرية في وضع أو إلغاء أى قانون مدرسى يتضح بجملة في الإدارة المدرسية ، فأولئك الذين وضعوا القانون مسئولون عن تنفيذه وتطبيقه على أنفسهم . ومن ذلك يتبين أن سلطة ناظر المدرسة والمربين ضعيفة أو معدومة ، وأن ليس هناك سلطة عليا تملى رغبتها على مروضيها ؛ بل هناك احترام ، ورغبة ، واعتداد بالنفس .

وتعتقد المدرسة أن منح تلك الحرية للطفل - نظريتهم هي أن الحرية حق طبيعي للطفل - يكون فيه فضائل لا تكونها الشدة والإدارة الصارمة . ويعنون بتلك الفضائل : الشجاعة ، وحب الحقيقة ، والشفقة ، والاقدام . يقول ناظر المدرسة في كتاب أصدره عن التربية بعنوان « المدرسة » :

« كلنا يعلم أن الطفل في المدرسة مجبر على أن يظهر الأدب ويلتزم النظام في بعض الفصول الدراسية ، بينما هو يظهر عكس ذلك في فصل آخر حينما يشعر أنه آمن من العقاب . ومن هذا نستنبط أن الفضائل التي أبدأها في الحال الأولى لم تكن نتيجة حب للفضيلة ورغبة في عملها ، وإنما كانت نتيجة الرغبة في تجنب العقاب . فلو تركنا إذاً للطفل - أو الأطفال - الحرية في اختيار النظام الذي يلائم طبيعتهم لصدرت الفضيلة عنهم بريئة ظاهرة لا يصحبها تصنع أو نفاق .

(١١) لم أشعر بذلك الاحترام الشخصى بين تلاميذ أى مدرسة زرتها في إنجلترا أو قمت بالدراسة فيها ، كما شعرت به بين تلامذة مدرسة دار تينجتون . فرغنا عن تلك الحرية المطلقة التي يتمتعون بها لا يتعرض أحدهم لآخر بانتقاد مهما كان

مخطئا . ولما كان التلاميذ مسئولین بالتضامن عن تصرفهم ونظامهم كان طبعاً ان يتخذوا وسيلة لتنبیه المخطئ إلى سوء تصرفه أو خرقه النظام . هذه الوسيلة سلبية محضة ، فالتلميذ الذى لا يحضر إلى حجرة الطعام فى الميعاد الذى حدده يؤكل غذاؤه ، والتلميذ الذى یسئ معاملة زملائه یقاطع . وليس لتلميذ أى حق فى التعرض لآخر بانتقاد شخصى ، وإنما یرك هذا لروح الاعراض والنفور التى تبديها الأغلبية نحو المخطئ .

(١٢) وأخيراً ما موقف ناظر المدرسة ومديرها إزاء تلميذ عرف بالكسل والإهمال أو خرق النظام أو تحدى القوانين التى اشترك فى وضعها ؟ يقول ناظر المدرسة فى كتابه (المدرسة) : « أستطيع ان أحكم من تجاربى فى التعليم أن الوسيلة المستجدة فى حالة صدور أى سوء تصرف أو إهمال من التلميذ أن یجتمع طائفة من التلاميذ وبينهم ذلك التلميذ المتهم ، مع طائفة من المدرسين وأن یبحثوا المسألة باشتراك وبصراحة وحرية لكل متكلم . ومهمة المدرس هنا هى توضیح الفكرة ، والتعبير عن الرأى العام ضد هذا التصرف ، وتسهيل مهمة المناقشة وتنظيمها بين التلاميذ وإذا قصر المدرس واجبه على هذا فقط فإن التلاميذ يستطيعون أن یعطوا حكماً معقولاً ، وأن یقرروا رأياً سديداً ، وأن یجدوا حلاً مرضياً لقضيتهم . وليس من الممكن اتباع هذا النظام الذى أشير به إلا إذا كانت المناقشة حرة مصحوبة به لماذا ، وكيف ؟ ، وكان المدرسون الذين يشتركون فى المناقشة معتقدين بسلامة تفكير الأطفال ، وقدرتهم على الوصول إلى نتيجة منطقية ، إن الطريقة المتبعة فى المدارس لاصلاح الطفل وتقويمه هى العقاب أو التهديد بالعقاب ولكنى أرى أن العقاب غير مجد . وإننى لأتحدى أولئك المدرسين الذين یدينون بضرورة العقاب لتقويم التلميذ أن یجیبوا على هذا السؤال « أليس التلميذ الذى عوقب لذنوبه من الذنوب هو بعينه الذى یقترب الذنب مرة أخرى ؟ ، وإذا فما فائدة العقاب ؟ إذا كان للعقاب أى قيمة فى التریة والتهذيب فلتكن إرجاع الطفل إلى أحضان الفضيلة التى انحرف عنها . ولكن العقاب كوسيلة لترك الرذيلة فقط ليس بذی قيمة فى التریة . ولأعرض على القارىء حادثة شخصية فى ظنى أنها كافية لإقناعه

بعدم فائدة العقاب لاصلاح الطفل : عندى الآن تلميذ فى المدرسة ، حضر إليها بعد أن أمضى ثلاث سنوات فى مدرسة أخرى كان فيها يضرب بالعصا يومياً . ولو أن العقاب يكون الفضيلة لأصبح ذلك التلميذ ملاكاً ، ولكن النتيجة أنه أصبح يرى فى المدرسين وناظر المدرسة أعداء ألداء له ، وأنه أصبح لا يبالي بنحرق النظام وبجابه الإدارة بالخطأ . ولم ينتج العقاب فى قسوته ، ووقاحته ، وكسله ، وحبه للتخريب أى إصلاح ؛ بل بالعكس تحول التلميذ من سىء إلى أسوأ ، ولكننى عاملته بالتى هى أحسن واتبعت معه الرفق ، وصادقته ، فاعتدل وبدت عليه علامات الاستقامة ، وهو الآن فى طريق التقدم الخلقى ، ولن يمضى زمن طويل حتى يصبح عماداً فى مجتمعة .

هذا هو رأى ناظر المدرسة فى العقاب أو الزجر أو التوبيخ ، وفى اعتقاده أن الرفق ولين الجانب وحسن السياسة تقود إلى تقويم المعوج . أما إذا أعيت كل هذه الوسائل فهناك الحل الوحيد الذى يشير اليه التقرير السنوى بالعبارة الآتية : « تحتفظ المدرسة بحقها المطلق فى فصل أى تلميذ ترى أن بقاءه بين التلاميذ غير مرغوب فيه ، وحكم ناظر المدرسة فى هذه الحال نهائى لا يقبل استئنافاً . »

لقد أطلت القصص ، ولعلى مع هذا قد وفقت لإعطاء القارىء صورة قريبة للحقيقة من مدرسة دار تينجتون ونظامها .

ولعله من المناسب قبل أن أتمم المقال أن أشير إلى طرق التدريس المتبعة : المدرسون لا يعتقدون بصلاحيه طريقة خاصة فى التدريس فهم يرون محاسن ومثالب فى كل طريقة ولذا يختارون ما هو أوفق لتلاميذهم ، وأنسب لظروفهم ، وأصلح لمجتمعهم . وهم يتبعون - مع صغار الأطفال - الأسس العامة لطريقة فرويل ومدام مونتسورى ، وكذلك طريقة دلتون ، ولكنه بثير من التهذيب والتنقيح .

ولأختم اذا حديثى بما وعدت القارىء به حين قابلت صاحب الفندق ؛ قال لى صاحبى وهو يحاورنى لن أخشى شيئاً على أبنائى الثلاثة الذين يذهبون إلى تلك المدرسة خلال عهد الدراسة ، وإنما أنظر إلى مستقبلهم بشىء من الخوف والشك

وذلك لسببين: الأول هو أن تلك الحرية المطلقة التي يتمتعون بها الآن سيفاجئون بفقدائها بمجرد ترك المدرسة، وسيرون أن الحياة العملية صورة مخالفة لتلك التي ألفوها في مدرستهم. وحينئذ يواجهون من الصعوبات، وقيود المجتمع والقوانين المفروضة ما لم يحلوا به. وسيجدون أنفسهم غرباء في معترك الحياة العامة عاجزين عن رياضة أنفسهم على إطاعة النظم الموضوعه، والخضوع لسلطة فوق سلطتهم ونفوذ أقوى من نفوذهم. ولن يكون لهم حق اختيار نظام، أو تقرير مصير، وسيكونون أشبه بملائكة بين شعب من الشياطين.

أما السبب الثاني فهو أن هذا النوع من التربية — على ما به من سمو وكمال — صالح لأبناء الأرستقراط والأثرياء الذين يجدون من ثروة آبائهم ما يمكنهم من اختيار الحياة العملية التي تتفق مع تنشئتهم وتربيتهم الأولى. أما أبناء الفقراء — مثل — الذين يعتمدون على كسب عيشهم بأنفسهم ولا يجدون مندوحة عن الاتصال بالجمهير، والاندماج في المجتمع كعضو حيوى عامل، فستكون تربيتهم الأولى مبعث يأس وقنوط حينما ينزلون مضار الحياة الحقة. وأرى أن اعتراضى صاحبى جوهرىان، وجديران بالتفكير واتخاذ الحيلة لمستقبل الأطفال، فالتربية مهما اختلفت أغراضها يجب أن تعد طفل اليوم لأن يكون رجل المستقبل، ولن تكون التربية كاملة إلا إذا هيأت الشخص للحياة العامة. ويرد مديرو المدرسة على هذه الاعتراضات بأن الحياة العامة مملوءة بالعيوب والأخطاء، والنظم العتيقة، وواجب التربية أو غايتها تهذيب تلك النظم العتيقة وإصلاحها ومعالجة تلك العيوب والأخطاء، وهذا غير ممكن إلا إذا أعدنا الطفل للنيل الأعلى من الحياة، وربناه التربية السامية للحياة التي يجب أن تكون لا للحياة كما هي الآن.

عبد العزيز أمين